

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك على سنة
٣٠ في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ بمن العدد الواحد

الادارة
دار الرسالة بشارع المبدولى رقم ٣٤
حاجدين - القاهرة
تليفون ١٢٣٩٠

الدرية

مجلة أسبوعية للفن والفكر والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصف

السنة الثالثة

٢٦ ذو الحجة سنة ١٣٥٧ - ١٥ فبراير سنة ١٩٣٩

العدد ٥٠

من أحسن القصص



فهرس العدد



صفحة	
١١٤	صلوة الفجر
١١٩	بين الحفل والمدرسة
١٣١	شجاعة امرأة
١٣٧	الابن
١٤٣	مجنون زاهد
١٤٩	يونس
١٥٥	حاجى بابا أصفهاني
...	أقصصة عراقية
...	أقصصة مصرية
...	للكاتب ل. غارمان
...	للكاتب الفرنسي بول بورجيه
...	أقصصة مصرية
...	أقصصة مصرية
...	للكاتب الانجليزى « جيمز موير »
...	بقلم الأستاذ على الطنطاوى
...	بقلم الأستاذ دريني خشبة
...	بقلم الأديب ناجي الطنطاوى
...	بقلم الأديب كمال الحريرى
...	بقلم الأديب عبد الحليم العشيري
...	بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

صلاة العجيب

أَقْصُوصُ حِزْبِيَّةِ
بِقَلَمِ الْأَسَازِ عَلَى الطَّنْطَاوِي

قد احتواه هذا الواقع القبيح ،
وذكر ما كان بينهما وبين هذه البنى
التي قدمت إليه فرائها ، وأحاطته
بذراعيها ، فأحس بالاشمئزاز ،
وذل في عين نفسه وتضائل ..
ماذا فعلت بنفسى ؟ أهذه هى
مبادئ وأخلاقى ؟ وبعد فهاذا
أصنع الآن ؟

وعم بايقاظ إيمانه واللجوء إلى ربه ، ولكنه
لم يستطع فقد ألفت المعصية حجاً على قلبه ، ورائت
الخطيئة عليه ، فأحس بالآلم يقطع فى فؤاده ، فقام
إلى ثيابه يرتديها على عجل ليخرج من هذه الدار القذرة
التي أضاع فيها عفافه ، وخسر طمأنينة نفسه .
وفكر فى الناس ، ألا يرونه ؟ ثم رأى أن لا بد له
من الخروج من هذه الدار التي يحس أنه فيها كمن
أتى فى بركة قدرة ليموت فيها غرقاً ...

وألقى على المرأة نظرة أودعها كل ما فى نفسه
من كراهية واحتقار وبصق مشمئزاً وخرج هارباً .
ولكن كيف له بالهرب من نفسه ، والفرار
من ضميره الذي يذيقه من التقرع والازدراء ما ليس
لخلق يحمل مثله طاقة ؟ وكان شارع الرشيد خالياً
مقفرًا إلا من أعقاب السابلة ، من كل بائس أوداعر
لأنه لا يبقى بقايا فى مثل هذه الساعة إلا البؤس
والزبلة . وكانت ليلة مجنونة ذات رياح تموى فى هذا
الليل مثل عواء الدباب الجائعة يخاطه أصوات آلاف
من النوم تنبم ممّا ، فتملأ أصواتها الفؤاد السليم
زعراً ، فكيف بمنزل فؤاد رجب أفندى المروع
للكاميم ... وكانت الأمطار تسكن لحظة ثم تمود
فتنهطل ، تنصب انصباباً كأنما هى تريد إفراغ السحاب

... أفاق فى الساعة التى ألف ، فضرب يصره
إلى الجدار حيث الساعة الكبيرة ، ليرى كم بقى
من الليل ، فلم يجد على الجدار ساعة ، وإنما وجد
صورة لامرأة عارية ، تبدو له على ضوء الصباح
للكيل كابية مظلمة عليها من الوحشة والقبح ستار ،
فما من النظر إليها ، وأجل عينيه فى أرجاء الغرفة ،
فاذا هو منكسر لها ، لا يعرفها ولا عهد له بها ، وإذا
هو يري إلى جانبه على السرير امرأة عارية مفتوحة
الفم تغط غطيلاً منكراً ، وقد سالت الأصمغة
على وجهها واختلطت ، فتعوز بالله من هذا الحلم
وألقى برأسه على الوسادة ، يفكر تفكيراً مبهماً
مختلطاً ، فما لبث أن عاد إلى المنام فرأى نفسه ملكاً
من ملوك الأساطير ، مضطجماً على سرير المصع
بالذهب ، المحلى بالياقوت والمرجان ، والوصائف
قائمات على رأسه ، عاريات السوق ، باديات للنحور
والصدور ، ينثرن عليه الورد ، ويضمخن مفرقه
بالمسك والعنبر ، وأمامه الغنون والغنيات ، وإلى
جانبه فتاة جمع الله فيها ما تفرق من سمات الجمال ،
فلم يتالك أن أهوى على فيها بقبلة ...

... فأحس بها تدفمه عنها ، فنظر فاذا هو
مستيقن أن ما يراه حقيقة ثابتة ، وأن حلمه الجليل

الذنوب والله كريم غفار ، لو جاءه العبد بقراب الأرض خطايا وجاء معها بالتوبة الصادقة بشروطها الثلاثة لجاءه الله بقرابها مغفرة ، والله غفور رحيم ...

وكان رجب افندى فى الخامسة والمشرين ، فى السن التى تركب المرء فيها شياطين الشهوة ، وتزين له السبل إليها ، فلا يتفكر ، ولا يقف إلا فى آخر الطريق كالسخرة على شفر الوادى ما بقيت مكانها فهى ثابتة مستقرة ، فإذا زحزحتها وقلبها قلبه واحدة هبطت إلى أعماق الوادى ... وكان رجب افندى قد نشأ متدينًا ، وكان شيخًا بممة وجبة يطلب العلم على المشايخ لم يدخل مدرسة نظامية ولم يختلط بشباب العصر ، فكانت الممة عصمة له من البلاء ، وسدًا يحول بينه وبين (الأوتيلات) والمراقص والحانات ، وكانت نفسه كهذه الممة التى على رأسه صفاء وطهرًا وبياضًا ولكنه اضطر منذ أعوام إلى العمل فى ديوان من دواوين الحكومة فنزع الممة مكرها ، وودعهما آسفًا ودخل اللجة وهو جاهل بالسباحة ، ليس له بطبيعة الماء خبرة ، ولا بمسير الموج علم ، فحملته موجة فألقته بحيث ترى ... ولو أنه عرف طرق الشر لما سلكها ، ولو كان متزوجًا لما هوى ، ولو أحسن اختيار أصحابه لما انساق هذا الساق ، ولكنه كان جاهلًا بما وراء الدار والمدرسة والسوق ، يستوى عنده فى عالم الرذيلة جلوس فى قهوة ، أو شهود رواية فى سينما ، ومعاينة الخمر فى الحانة ، ومجالسة البنى فى الماخور . وكان غريبًا ، ونفس المزب مهما اتقى وصلح كصندوق الديناميت لا يؤمن انفجاره إذا دافاه لهب أو مسسته نار ، ونفس المزب

فى دقيقة واحدة . والريح تضرب حباتها فتصرفها طات اليمين وذات الشمال ، والبروق تسطع خلال ذلك تخطف الأبصار ، والرعد يدوى فتحس أن قد ثققلت بساكنها الأرض .

وضرب رجب أفندى بيده إلى جيبه فألفاه فارغًا وذكر أنه دفع مرتبه كله الذى قبضه أمس لهذه البنى ... فمظم عليه الأمر ، وبانح من سخطه على نفسه أن ود لوعض يده بأسنانه ، أو قطع شمره بيده ، واستفطع ما أتى وفكر فى أهله الذين لم ينب عنهم من قبل ، ولم يبت ليلة إلا معهم ، فكر فى أمه التى يعلم أنها لا يغمض لها جفن ما دام نائمًا عن الدار ، وأبيه للشيخ المسكين الذى لا يفكر إلا فيه ، ولا يعنى إلا بسعادته . ماذا يقول لهم ؟ ومن أين يموض عليهم مرتبه الشهرى الذى ينتظرونه ساعة بعد ساعة ، ليشتروا به الخبز ... أيقول لهم إنه وضعه كله فى يد مومس ثمنًا لليلة إثم وعار ؟

لا . الموت أهون من ذلك ! وفكر فى الموت فعلا : ماذا على إذا ألقيت بنفسى فى دجلة فسترت فيها إمنى ... ولكن هذا الخطر المحى من رأسه على محمل ، لأن رجب أفندى كان متدينًا يعلم أن السلم لا يعمد أبدًا إلى هذا الانهزام الشائن من غمرة الحياة وباب الفضيلة مفتوح أبدًا ، والتوبة تنسل النفوس مهما تراكت عليها أوزار الآثام ... وهم بأن يستغفر الله ويدعوه ، ولكن الحياء من الله عقد لسانه ، أن يتوجه إليه ويسأله وهو غارق فى حمأة الرذيلة إلى أذنيه ونسى أن الدعاء يكون أدنى إلى القبول كلما كان للعبد أقرب إلى الاضطراب ، وأن للندم على ما مضى والمزم على الافلاج عن الذنب فيما بأتى ، مع تركه والانصراف عنه دواء يشفى أكبر المذنبين من أشد

المسكين قد قرأ دواوين الشعر الغزل ، وروايات
الحب للمذرى كلها ، فظن أنه قد غدا قيساً جديداً ،
أو روميو آخر ...

وكان رجب أفندي يمرض في نفسه هذه القصة
وهو يعيش متسللاً في ظلال الجدران ، في هذه الليلة
العاصفة الماطرة ... ويذكر كيف عاد إليها بعد ذلك
فسمع حديث شقاها ... وبكى لبكاها ، كما كان
يفعل المحبون الذين قرأ أخبارهم في الأشعار والروايات
وصب بين يديها ما كان في جيبه من مال .. وكيف
ندم وتنبه إيمانه في نفسه . فعزم على ألا يراها من
بعد ، فأبطل رفاقه عزيمته وأفهموه أن للشباب
العصرى لا يليق به أن يفعل ذلك فماد صرة ثالثة
ورابعة ، وهي دائماً في أثواب المثلة العاشقة الغريبة
تهيج نفسه ونظمه ولكنها لا تطعمه ، وتعرض
عنه ولكنها لا تؤيسه ، فهو يتبعها أبداً راغباً فيها ،
ولكنه لا يصل إلى شيء

واستيقظ إيمانه كرة أخرى ، فأزمع أن يتركها
أبداً ، وذهب إلى مكتبه بمنزلة جديدة ، وراحة بال
وأدى عمله بنشاط ظاهر ، وصرت على ذلك أيام
حسب فيها أن كل شيء قد انتهت ، وأن هذه السحابة
قد انقشعت من سماء حياته ، ولكن البريد حمل إليه
كتاباً منها فقرأه وغضب وصرقه باضطراب عصبي
ظاهر . وخرج يمشي إلى داره ، فأحس أن نفسه
تنازعه الذهاب إليها ، فأعرض ومضى قدماً فاشتدت
رغبته في زيارتها فزعم لنفسه أنه ذاهب لتأنيبها
وإعلان القطيعة بينه وبينها ... ودخل عليها مقطباً
وردد على تحيتها بأعراض ، فسأته : مالك أيها الحبيب ؟
فقال : لا شيء ! لست بحبيب أحد من فضلك

يلهبها كل ما في السوق من متبرجات سافرات ،
وما على الشاطئ من عارين وعاريات ، وما في السيما
والقصص من أخبار الداعرين والداعرات ... فأبان
تأمن انفجار الديناميت ؟ ثم جاءت طامة الطامات
فالتف حول رجب أفندي نفر من زملائه تطوعوا
لإغوائه احتساباً لوجه إبليس ، فوجدوه شديداً
عنيفاً ورأوه قد ثار الثورة الكبرى لما أرادوه على
دخول القهوة ، فملأوا أنه قد صف قوى نفسه كلها
في هذه المركة الصغيرة ، ولم يبق لها وراءها شيئاً ،
وأيقنوا أنهم لو غلبوه هذه المرة غداً منقاداً لهم طيعاً .
فما زالوا به راوغونه ويحتالون عليه ، ويسألون من
يثق بهم على مسمع منه : هل في دخول القهوة
ما يمس الدين أو العرض ، أفنونا يا مسلمون ؟ .
فيقولون : لا ... وإنما هي مضيمة للوقت ، مفسدة
للصحة ، وإنها عادة مؤذية ، ولكنها لا تنافي الدين ،
ولا تعد في المكفرات ... وما زالوا به حتى دخل
القهوة ، فجلس مستحجياً يتصبب منه العرق ، ويظن
أن كل ما في الأرض عيون تنظر إليه ... ثم لم يطق
البقاء فخرج ، ولكن رجله عاقت في الفخ ... واعتاد
القهوات ، وسار إلى السيما ، وما في ذلك كله
بأس ، ولكن رجب أفندي اعتقد أنه هوى وزل
مد دخل القهوة ، وأن السد بينه وبين الرذائل كلها
قد انهار ، فلم يقف في طريقه شيء ، وعرف ذلك
أصحابه من عباد إبليس الخلفين ، فأنموا لعبتهم على
ذقنه ، ليستكملوا سرورهم بكال هذه الرواية ،
فأخذوه إلى دار من تلك الدور التي تسمى (أوتيلات)
أو (بانسيونات) ولكن جدرانها تنضم على ماخور
من شر المواقير ، ومعبد من معابد إبليس ، وأغروا
به الفتنة ، وأوهموه أنها تحبه وتموت عشقاً له ، وكان

وذكر كيف أزمع الاتصال بها مرة واحدة ،
أو الاضرار عنها مرة واحدة واطراحها ونسيانها
وأني لذلك وهي لاندع إلى إغرائه طريقاً إلا سلكته ،
إنه يراها كالأنفى البرقشة ، ويتصورها أحياناً حشرة
قدرة ولكنه بود مع ذلك لو قبض عليها فمصرها إليه
وعصرها وأكلها أكلًا ...

وذكر كيف كان الندم يذمر نفسه ، فيأوي
إلى غرفته يشتغل بالمطالعة ، ويقبل على كتب الرقائق
ويخرج إلى المقابر والمستشفيات ، يتمطر برؤية المرضى
والتفكير في الأموات ، حتى إذا أحس البرء قليلاً
جاء رفاق السوء بالمرض العضال ... وذكر كيف
كان يتفق في كأس من الويسكي أو الشبانيا ما يكنى
أسرته أسبوعاً كاملاً ، كل ذلك من أجل هذه الفتاة
التي اتصل بها أخيراً ، فتكشفت له عن حشرة
حقيقية ، يبصق عند رؤيتها اشمزأزاً ...

وكان يفكر وهو يسير مسرعاً ، يريد أن يفكر
من الناس حتى لا يراه أحد ، فلم يبع على نفسه
إلا وهو في ضاحية (الأعظمية) ...

قال لي وهو يحدثني حديثه :

... فلما بلغتها سمعت المؤذن يمجّد الله ويذكره

ذكر السحر

ورأيت جارنا أبا صالح ، يمضى إلى المسجد وهو
يقول : لا إله إلا الله ، يقتلها من قرارة قلبه ،
فتواريت منه كيلاً يرانى ، وجعلت أذكر أيام كنت
لا أعرف هذا السحر الذي جر على كل بلاء ، فكنت
أمام عقب العشاء ، ثم أفيق في السحر ، فأرافق
أبا صالح إلى المسجد ... فرأيت بيني وبينه أمداً بعيداً
وتغثت لي خطاياى وآثامى كلها ، لأن صوت المؤذن

وشعر بالارتياح ، وسره أنه استطاع أن يخاطبها
بمثل هذه الفجة ، وتوقع أن تجيبه بحفاء فينضب
وبسارحها بالطبيعة . ولكنها ظلت صامته ، وظل
هو مطرقاً ينظر جواب ما قال .. فطال عليه الأمر
فرفع بصره ليرى ما تصنع ، فالتفت نظراتهما وخيل
إليه أنه رأى في عينها معنى الألم والتمنى والاختلاص
يلوح له من خلال جفونها للناعسة ، وأهدابها الطويلة
فتنضمض ولان وخفق قلبه بشدة وأحس بالرغبة الملحة
في الاقتراب منها وعناقها ، ونهض ليدنو منها ولكنه
لم يجزؤ على ذلك فلبث قائماً . قالت : مالك ؟ فلم يجب ، فهدت
إليه يدها لتجلسه ، فلما أحس بأصابعها بين أصابعه
اهتز جسمه كله ، وانتفض على نحو ما يصف الشعراء
والقصصيون ... وجلس إلى جانبها وألقى يده على
كتفها كأنما كان ذلك عفواً ، فشعر بلذة وسره
ما كان من جرأته فمكر في أن يلف يده حول عنقها
ولكنه خشى أن تنضب .. وأن ترى في ذلك تعدياً
على عفافها ، وذكر أن ماجدولين غضبت لما قبلها
سديفن لأن هذه القبة قد أفسدت الهوى المذرى ..
الذى كان بينهما ، ثم اشتدت رغبته في تطويقها
بذراعه ، فتردد حيناً ثم لف ذراعه حول عنقها ،
وأتم ما كان يفكر فيه فأسند رأسه إلى كتفها
كما شاهد الممثلين في السينما يفعلون ، فلم يبد عليها
شيء من النضب فأوغل في الجراءة فأخذ يدها بيده
الأخرى ورفعها إلى فمه فس ألاملها بشفتيه ...
ونظر ماذا تفعل ؟ فإذا هي قد ألقت رأسها فوق رأسه
حتى لامست خصلات شعرها وجهه ، فأنهت النار
في أعصابه وهم بها فوثبت كالقطة .. وجعلت تشكو
إليه ما عليها من الدين ، فدفع إليها كل ما في جيبه ..
فلما احتوت المال يدها تخلصت منه فلم يدر كيف
خرج إلى الشارع ...

المسكين قد قرأ دواوين للشمر الغزل ، وروايات الحب للمذرى كلها ، فظن أنه قد غدا قيساً جديداً ، أو روميو آخر ...

وكان رجب أفندي يمرض في نفسه هذه القصة وهو يمشى متسللاً في ظلال الجدران ، في هذه الليلة العاصفة الماطرة ... ويذكر كيف عاد إليها بعد ذلك فسمع حديث شقائها ... وبكى لبكائها ، كما كان يفعل المحبون الذين قرأ أخبارهم في الأشعار والروايات وصب بين يديها ما كان في جيبه من مال .. وكيف ندم وتنبه إيمانه في نفسه . فمزم على ألا يراها من بعد ، فأبطل رفاقه عزيمته وأفهموه أن للشباب المصري لا يليق به أن يفعل ذلك فعاد مرة ثالثة ورابعة ، وهي دائماً في أبواب المثلة العاشقة الثائرة تهيج نفسه وتطمعه ولكنها لا تطعمه ، وتعرض عنه ولكنها لا تؤيسه ، فهو يتبعها أبداً راغباً فيها ، ولكنه لا يصل إلى شيء

واستيقظ إيمانه كرة أخرى ، فأزمع أن يتركها أبداً ، وذهب إلى مكتبه بمزينة جديدة ، وراحة بال وأدى عمله بنشاط ظاهر ، وصرت على ذلك أيام حسب فيها أن كل شيء قد انتهى ، وأن هذه السحابة قد انقشعت من سماء حياته ، ولكن البريد حمل إليه كتاباً منها فقراء وغضب وصرقه باضطراب عصبي ظاهر . وخرج يمشى إلى داره ، فأحس أن نفسه تنازعه الذهاب إليها ، فأعرض ومضى قدماً فاشتدت رغبته في زيارتها فزعم لنفسه أنه ذاهب لتأنيبها وإعلان القطيعة بينه وبينها ... ودخل عليها مقطباً ورد على تحيتها بأعراض ، فسألته : مالك أيها الحبيب ؟ فقال : لا شيء ! لست بحبيب أحد من فضلك

يلهبها كل ما في السوق من متبرجات سافرات ، وما على الشاطئ من عارين وعاريات ، وما في السيما وللقصص من أخبار الداعرين والداعرات ... فأبان تأمن انفجار الديناميت ؟ . ثم جاءت طامة الطامات فالتف حول رجب أفندي نفر من زملائه تطوعوا لاغوائه احتساباً لوجه إبليس ، فوجدوه شديداً عنيفاً ورأوه قد نأر الثورة الكبرى لما أرادوه على دخول القهوة ، فملأوا أنه قد صف قوى نفسه كلها في هذه المركة الصغيرة ، ولم يبق لما وراءها شيئاً ، وأيقنوا أنهم لو غلبوه هذه المرة غداً منقاداً لهم طيعاً . فما زالوا به راوغونه ويحتالون عليه ، ويسألون من يثق بهم على مسمع منه : هل في دخول للقهوة ما يحس الدين أو المرض ، أفنونا يا مسلمون ؟ . فيقولون : لا ... وإنما هي مضيفة للوقت ، مفسدة للصحة ، وإنها عادة مؤذية ، ولكنها لا تنافي الدين ، ولا تعد في المكفرات ... وما زالوا به حتى دخل القهوة ، فجلس مستحجياً يتصبب منه العرق ، ويظن أن كل ما في الأرض عيون تنظر إليه ... ثم لم يطق البقاء تفرج ، ولكن رجله علقت في الفخ ... واعتاد القهوات ، وسار إلى السيما ، وما في ذلك كله بأس ، ولكن رجب أفندي اعتقد أنه هوى وزل مذ دخل القهوة ، وأن للسد بينه وبين الرذائل كلها قد انهار ، فلم يقف في طريقه شيء ، وعرف ذلك أصحابه من عباد إبليس المخلصين ، فأثموا لعبتهم على ذننه ، ليستكملوا سرورهم بكال هذه الرواية ، فأخذوه إلى دار من تلك الدور التي تسمى (أوتيلات) أو (بانسيونات) ولكن جدرانها تنضم على ماخور من شر المواخير ، ومعبد من معابد إبليس ، وأغروا به الفتنة ، وأوهموه أنها تحبه وتموت عشقاً له ؛ وكان

سر الليل ، فأعاد الله إلى ما كان سلبنيه من الأنس
وسعادة الروح بالتوجه إليه . ومراقبته . . .
وله الحمد على ذلك

الآن عرفت جمال الدنيا ، لا كما يقول أصحابك
الأدباء ، من أن المرء لا يعرف جمال الدنيا إلا بالحب
وأن الحب لا يرى الدنيا جميلة إلا إذا أضاعها عيناً من
يحب — فإذا غابتا غاب جمالها — فأى كون هذا الذى
تحتويه عينا امرأة قد تكون بغيًا ؟

إننا نحتاج إلى مبشرين بالفضيلة ممن عرف الرذيلة
وخبرها ، أما من دعا إلى الفضيلة لأنه لم يقدر عليها
فهو شر من الشيطان ، لأنه إن قدر عليها انقلب
داعراً خبيثاً فأضل معه من كان اهتدى بهديه ،
والشيطان يدعو إلى الرذيلة على النور فلا يضل به
إلا من أراد الضلالة ، وليست فضيلة الماخذ إلا انتقاماً
لنفسه من القادرين ، ولقد ترددت بين الحياتين :
حياة يلذها الشبان ويأنسون بها وهى حياة الانطلاق
من كل قيد ، والسعى وراء اللذة ، والاستجابة إلى
داعى الهوى ، وحياة لا تمجّب أكثر الشباب لأن لها
غاية سامية ، ووراءها حياة آخرة ، وفوقها إله قادر
يعلم صاحبها أنه إن فاته حفظه من لذة عاجلة فانية ،
فاله من اللذة الآجلة الباقية ، فتأدبت بأدب القرآن
فكنت أغض البصر ، وأزله اللسان عن الفحش ،
وأبتعد عن المغريات فنتل والحمد لله السعادة كلها .

قلت : أناذن لى بنشر حديثك ؟

قال : نعم ، ولهذا حدثتك به ولكن دع الأسماء
لا تصرح بها . وكذلك فعلت !

عنى الطنطاوى

وجلال السحر قد نبها فى نفسى الدخيرة الدينية ،
فأدركت قيمة الاستقامة ، ولذة المغاف ، وعلمت
أن هذه السعادة التى يحس بها المؤمن لا تعدلها الدائد
الجسم ، ومتع الحب ولا توازيها . . . وأدركت أن
للصلة بالمرأة سراب خادع تراه من بعيد ، وتسمع
وصف زلاله الصافي ، ومائه النسيير ، فيبهجك
الشوق إليه ، ولكنك إذا جئت لم تجده شيئاً . . .
جرب هذه الصلة مرة تحس بهوانها وسخفها . . .
لا . . . لا تجربها ، فإن من جرب المحرب حلت به
الندامة ولا تناصر بدبتك وشرفك لتعلم هذه الحقيقة
بل نق بما أقول لك . ولا تثر هذه النار فى نفسك
فانك لا تستطيع أن تطفئها . إنه لا يطفئها إلا أن
تستمع بكل جميل فى الكون ، وهيهات . إنك إذا
استطعته لا تقوم سميتك به ، ولا تدوم لك وأنت
تنفق منها بلا وعى ولا حساب

لما أحسست بذلك أسرع إلى الحمام فتطهرت ،
وخرجت أوام المسجد ثابتاً ، وأحلف لك أنى لم
أجاوز بابه حتى وجدت مثل ارتياح الغربق إذا خرج
إلى الهواء ، أو المخنق إذا فتح له مجرى النفس ،
وشمرت أنى أسمو وأرتفع ، وأن هذه الأغلال التى
كانت تعيد روحى قد تحطمت وانكسرت ، وأن عبء
الخطايا قد نزل عن كتفى ، ولما وقفت فى الصف
وقلت : الله أكبر خرجت من دنياى

وقرأ الامام : « يا عبادى الذين أسرفوا على
أنفسهم ، لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر
الدنوب جميعاً » فجاء ذلك برداً على كبدى وسلاماً ،
فصححت التوبة ، ورأيت أن أصل البلاء من رفاق
السوء فهجرتهم جميعاً ، وقطعت جبل ودم ، وتركت

حظه ، أما ابننا فهو أخيب الخياب يارقية ... أما
والله لا أريد له إلا الخير ... يساعدني ... إني رجل
مريض ، ولا أضمن أن أعيش له ... إني إذا مت
اليوم فسينقطع عن المدرسة برغمه ، ولا يجدمن يعلمه
عملا ينفعه ... التعليم لأولاد الأغنياء والموسرين
يارقية ... يكفي الفقير أن يتعلم الكتابة والقراءة
والحساب وما ينفعه في صحته ودينه ...

— وهل كل الذين يذهبون إلى المدارس أغنياء ؟
— المجتهدون منهم يستحقون التعليم ... لكن
الخياب أمثال السيد توفيق ، ينبغي أن يتعلموا في
جهات أخرى

— وأي الجهات تقصد ؟
— ينخرطون في أعمال آبائهم
— ومن علمك هذا ؟
— الحياة يارقية .. الحياة الصارمة التي حيتها
في ظل أبي

— زمن والدك قد مضى وانقضى ... نحن
في زمان جديد

— زمانكم الجديد هذا ، زمان مريض عليل
يمتلئ بالفرور ... كله زخارف ... إنك لا تريد
أن يذهب توفيق إلى المدرسة إلا ليدخل عليك
بالبذلة والطربوش ، وحتى لا يمشي حافياً ولا يلبس
للبشت ... وكى يكون يوماً من الأيام موظفاً مثل
ابن أبي عوف ... يقبض المرتب أول كل شهر ،
ويجوع آخر كل شهر ، وهو بالرغم من بذاته
ووسامته يمشي عمره ذليلاً فقيراً ، إذا طرد من عمله
أصبح من المتطلعين للفارغين ، فهو يتسكع هنا
ويتسكع هناك ، يحسد الناس ويحقد على الناس
وينقم أول ما ينقم على من يحسن إليه .. هل نسيت
عبد الخالق ابن الشيخ زمان ؟ ...
— هذا حظه ...

لا يذوقون اللحم إلا مرة في كل شهر ... ودقيق
الذرة قد أوهنهم وأنهك قواهم ، وكلما رأيت الدم في
بولهم وبرازهم ذكرت الملة التي أودت بمحمود وقضت
على كثيرين من أهل القرية

— أذكر الله يا شيخ ودع هذا التخريف
— لست أخرف يارقية ... لن يذهب توفيق
إلى المدرسة بعد الآن ...

— وماذا يقول الناس ؟ نفصح أنفسنا بين أهل
القرية ؟

— يقولون ما يشاءون ... ليس لأحد حساب
عندنا !

— وماذا يصنع توفيق إن لم يذهب إلى المدرسة ؟

— ماذا يصنع ؟

— أجل ... ماذا يصنع ؟

— يساعدني !

— يساعدك ؟ يكون فلاحاً ؟

— ولماذا لا يكون فلاحاً ؟

— هذا مستحيل !

— إن يكون إلا فلاحاً ...

— نجوم السماء أقرب إليك مما تريد ... توفيق

لن يمشي حافياً ... توفيق لن يخلع البذلة ليلبس
البشت ... توفيق لن يلبس البذلة مكان الطربوش ...

توفيق لن يمسك المحراث بعد أن كان يمسك الفلم

— اطعمني ... فلن يمشي توفيق حافياً ولن

يلبس البشت ولن يخلع الطربوش ... سيكون عروساً

كما تشتهين ، ولكنه سيكون فلاحاً مع ذاك !

— لن يكون فلاحاً ...

— بل سيكون فلاحاً كما كان أبوه وكما كان جده

— بل سيكون موظفاً نظيفاً يقبض المرتب

أول كل شهر مثل ابن المعلم أبي عوف !

— ابن المعلم أبي عوف كان ولداً ذكياً وهذا

يمود إلى الوظيفة ، وأخيراً استطاع أن يتزلف إلى
أحد أعضاء بلدية منوف فعيّنه كنّاساً
— كنّاس ؟

— إى والله كنّاس يارقية ! بمائة وعشرين
قرشاً في الشهر

— مبلغ لا بأس به ... إنه ثروة !
— لقد كان يشرب دخاناً بأكثر منه
— ومع هذا لا أحسب أن للفلاح يكسب
مائة وعشرين قرشاً مثلها في الشهر

— الفلاح مخلوق قنوع يارقية ، وهو إذا نجح
في زراعته وبارك له الله ربح أضعاف هذا المبلغ ...
إن جاموسة واحدة يبارك الله له فيها تربحه ضعف
هذا المبلغ

— ومع ذاك فلن يكون توفيق فلاحاً
— بل سيكون توفيق فلاحاً
— إذن أترك لك المنزل
— وإلى أين ؟
— إلى أبي
— وماذا تصنعين عند أبيك ؟
— ليس هذا شأنك
— إذا لم يكن شأني فيكون شأن من إذن ؟
— إذن يذهب توفيق إلى المدرسة ولا ينقطع

عن التعليم

— لن يذهب إلى المدرسة ولن ينقطع عن التعليم
— وكيف لا ينقطع عن التعليم وهو لن يذهب
إلى المدرسة !

— سيتعلم للفلاحة صنعة أبيه وصنعة جده

— هذا لن يكون

اختلف الزوجان اختلافاً شديداً ، وذهبت رقية
تشكو زوجها إلى أبيها وإلى أخواتها وإخوتها وجميع
(٢)

— لا ... لم يكن هذا حظه ... بل الغلظة
غلظة أبيه

— وكيف أخطأ أبوه ؟
— لقد كان الشيخ زمانياً أمهر حداد في القرية ..
لقد كان يسع كل يوم خمسة وعشرين شرشرة وعشرين
فأساً غير السكاكين والفصّات ، وقد استطاع أن
يجمع ثروة عظيمة ... سبعة أفدنة وثمانية عشر
قيراطاً يارقية من أحسن أراضي قريتنا ... خرطة
الساحل كلها وأرض أبي طافية .. أين ذهبت هذه
الجنة ؟ .. لقد بدوها عبد الخالق ...

— وما غلظة أبيه إذن ؟
— غلظته أنه لم يعلم ابنه صنعته
— ولكنه علمه ما هو خير منها ؟
— وماذا علمه ؟
— لقد نال الشهادة والوظيفة

— وانسأخ من طهارة الريف وغرق في زيف
المدن . ولما استغنى عنه وعاد إلى القرية ، لم يستطع
أن ينزل إلى أرضها لأن أجنحة الغرور كانت تذهب
به بعيداً في سماء غير سمائها ، فباع الأرض تفارق
وأنفق كما كان يتفق في حياة الوظيفة حتى لم يبق
في يديه شيء ... ولقد حاول مرة أن أقنعه بفتح
دكان أبيه فسخّر منى وقال : إنه لا يدري من صنعة
الحدادة كثيراً ولا قليلاً ... ولم أكن أقصد أن
يعمل بيديه ، بل كنت أعنى أنه يستطيع استخدام
أحد الصنائع الساكنين من أهل البندر فيصنع له
وهو يبيع ويدير العمل ، لكنه اتخذ حديثاً هزواً
واستكثر أن يخلع سترته وينفمس في تراب الفحم
ودخان الكبر وأن يمود سممه دقائق الأراذب
والسندال بعد ما تمودت أنغام العود والقانون
والسكان ... قلت له : لكن الصنعة على قدراتها
أشرف من البطالة ، فتبسم وقال : إنه لم ييأس أن

— أريد أن أعرف ، هل شكت لك رقية من ضيق في حياتها ؟
 — شكت أمر الشكوى ...
 — ومن أي شيء شكت ؟
 — من كل شيء .
 — من كل شيء مثل ماذا ؟
 — من النار الحربة ومن الزبر المكسور ومن بخلك ... ومن ...
 — بخل ؟
 — أجل ياسيد عبد الإله ... إنك تضن بشمن شربة ملح على ابنك عبد الفتاح ...
 — هذا هو الذي شكوت أمانته ... إن كل قرش يقع في أيدينا ندخره لمصروفات توفيق وبذل توفيق وطرايش توفيق ... إننا نجوع ياعم الشيخ رزق لنفرح بدخلة توفيق علينا بالبدلة والطرش والحذاء الأصفر الفاتح ... أولادي كلهم يتبولون دماً لأنني أعجز عن إرسالهم للطبيب وهذا لأن أخام يأكل أرزاقهم ... هم ينصبون ويكدون وكل نصيبهم وكدهم ذاهب عليه ... وهو مع هذا أخيب الخياب — كلام فارغ ... تخريف ... هل دخلت في علم الله يا شيخ ؟
 — ليس ضرورياً أن أدخل في علم الله لأعرف إن كان ولدي ينفع أولا ينفع ...
 — يا طاغي ؟
 — أستمغر الله أن أكون طاغياً ... لن ينجح توفيق في المدرسة ، ولو نجح فسوف يكون نجاحاً يشبه الخيبة — ولماذا ؟
 — سيكون مثل ابن أبي عوف — وماله ابن أبي عوف ؟

من تعرفهم ومن لا تعرفهم ، وراحت تنهمه بالجهل وضيق الفهم وانقباض الكف ... ولبثت في منزل والدها أياماً طويلة وهي ترفض العودة إلى منزل الطاعة ، كما يتقعر رجال المحاكم حين يسمون منزل الرجل المتزوج .. وكما تردد الرجل على منزل أبيها يطلب أوتها غلت في طلباتها فاشتترط أن تشتري ثلاث بذلات لتوفيق ، وطرشوين لتوفيق ، وزوجين من الأحذية لتوفيق ، أحدهما أصفر فاتح ، والآخر أسود (بأسنك) وجلس الفلاح المسكين الشيخ عبد الإله يحاور صهره النبي فيما ينبغي وما لا ينبغي من هذه المشكلات ... وكان الصهر كالفرس الحرون ، كلما أدلى عبد الإله بمحجة ركب رأسه ، وأبى أن يصني إليه ، وشرد بالحديث شروداً يكرب للصدر وبذهب بأنامة الحليم ... قال لزوج ابنته وهو بكامه بكل جراحة في وجهه ، فتارة يغمض عيناً ، وتارة يقلص شفة ، وطوراً يغفر فاه ، وأطواراً ترسم الأسارير مستهزئة حول عينيه وملء جبينه ، وهو في ذلك كله يتصنع اللباقة والفهم ، وإن لم يكن عنده شيء من لباقة ولا فهم — أنا عارف يا عبد الإله ... أنا عارفك ... أنا عارف ...

— أنا اليوم كما كنت بالأمس ياسيدي

— أبداً ... أبداً

— وماذا تغير من ظبي ؟

— كل شيء ...

— كل شيء مثل ماذا ؟

— الوعود الحلوة التي كنت تعدها في معاشر

رقية ذهب كلما أدراج الرياح

— وأي هذه الوعود ذهب أدراج الرياح ياسيدي ؟

— كثير ... كثير ...

من شأنها وشأن زوجها فقط .

لقد كان الشيخ عبد الله رجلاً حصبياً ينتفع أكثر من غيره من أهل القرية بعبء الزمان ، وهو إن أخطأ فملا في إهاجة الشيخ زرق بتعبيره بتفاهة ما أفاد من الأزهر إلا أنه كان على شيء من الحق فيما أراد أن يقول وإن يكن قد النوى عليه القصد وقائه حسن للتعبير . . . وأهل الزوجة حتى حين بدسون أنوفهم فيها لا ينبغي أن يشاركوها فيه أصهارهم مما يعنيهم وخدم ولا يعني أحداً سواهم ؛ وهم حين يشجعون بنتهم على معاندة زوجها ينقضون بأيديهم الأئمة بنيان سماعتها وسعادة الأسرة التي كان يجب أن تشيدها وتقيم عمادها . . . وهذه أولى وظائف الزوجة الصالحة . . . لكنها وظيفة لا تتم إلا للمرأة الكتوم التي لا يستخفها اللزق ولا يستهويها الطيش ، فتذيع من أسرار زوجها ما كان ينبغي أن يكون سر بينهما لأنه سياسة حياتهما .

لقد عير الشيخ زرق صهره عبد الله بأنه يجيع ابنته وهي تهمة مفتراة ما في ذلك ريب ، وإن لم تكن مفتراة فإن رقية هي التي قدفت بها في سمع أبيها . . . وقد افترتها في غير وعى ولغير حكمة اللهم إلا لشهوة التشنيع على زوجها الذي ضاق ذرعاً بنفقات تعليم ولده ، أخيب الحياض ، كما يطلق هو دائماً عليه ، فهو يريد أن يقطع عن المدرسة ليوفر لأولاده أكلة من اللحم كل أسبوع على الأقل بدل الأكلة الشهرية ، وليوفر لهم كذلك شيئاً من دقيق القمح وشيئاً من القماش يقيم زهره للبرد ، ثم لكيلا يرضى على أحد منهم بشئ شرية من الملح أوزاجاة من الفطرة ، ثم لكي يضمن لولده مستقبلًا عملياً فلا ترهقه الحياة ولا تفجأ بمطالبها بفئة حين يرغب على حياة الزرعة إرغاماً لم يأخذ له أهبة ولا أعد له عدة . والزراعة فن وصران يصبحان

— أسوأ حال وألمن مآل !

— ولماذا ؟

— لأنه يشتغل كناساً في بلدية منوف

— كذاب !

— لست كذاباً

— هل رأيته ؟

— لم أره ، ولكنني عرفت ؟

— لقد رأيته بعيني يجلس أمام مكتب نخم .

— هذا صحيح ؟

— إذن كيف تدعي أنه يشتغل كناساً ؟

— لقد رجوه فقط ، فهو معين كناساً ولأنه

يحسن الكتابة أخذوه ليساعد للكتابة . . .

— وهل أنت مهندس الكون يا شيخ عبد الله ؟

— لا . . . لست أنا مهندس الكون ، ولكنني

مهندس أسرتي فقط .

— وأين تعلمت هذه الفلسفة وأنت رجل ناف

وعمرات ؟

— ليس ضرورياً أن أتعلمها في الأزهر الذي

لم ينفعك بيصلة !

— اخرس يا قليل الأدب !

— لست قليل الأدب ، ولكنني أقول الحق ..

— اخرس يا جاهل

— لست جاهلاً فأنا أحسن للكتابة والقراءة

ولله الحمد ، وقد استفدت من الفلاحة أضعاف

ما استفدت أنت من الأزهر الذي قضيت فيه شبابك

فما أفدت مما حصلت فيه شيئاً ، ولولا ما ترك لك

أبوك . . .

وهكذا انقلب الحوار فصار حواراً أفلاطونياً

عجيباً . . . وهكذا انقلب محاورات القرويين .. وقد

أخطأت رقية حين أنارت العاصفة في منزل زوجها

وحين جعلت أهلها قضائهم فيما كان ينبغي أن يكون

لقد كانت أميرة فقيرة تعيش في إحدى حجرات الطابق الثاني من ذاك المنزل ... وكانت الأميرة مكونة من رجل عامل فقير ومن زوجة بائسة ، لهما طفلان يافعان ، أما أحدهما فغلام في السنة الأولى الابتدائية وأما الثانية ففتاة في السابعة عشرة ، رسم للفقر حول عينيها تهاويل عجيبية من السحر ، كانت تنشر ظلالاً من الفتنة فوق خديها ، وألواناً قرمزية فوق شفثيها وكانت ابتسامة واحدة من قها الدقيق الرقيق تصير بيؤس والديها أنهما ، وتلسمهم ما هم فيه من عناء وضيق وكانت هذه الابتسامة نفسها بلسم يشفي فؤاد توفيق ، وطلسم يشيع بالنشوة في كيانه ، فهو لهذا لم يكن يمدل بفرقة القذرة المكسوة بالحشرات من كل صنف قصرأ بأمره ، ولا مدينة من مرسر يشيدها ملك الجن فيزخر قها ويقم عمادها من فضة وذهب ، ويجرى تحتها الأنهار من خر وابن وعسل مصفى ، وينبت قها من كل زوج بهيج وأجل الحب وأخطره ما يكون في هذه السن المبكرة ... فهو حب يفر القلب ويشك النفس ويؤرق العين ، ويجعل صاحبه طيفاً قلما تصدمه حقيقة الدنيا ، وقلما يعترف بما فيها من نضال ، لأنه لا يفكر دائماً إلا في ملاكه ، وهو يقنى فيه بقلبه وعينه وسمه وإدراكه ، ويهيه كل وقته لأنه يمد نفسه كما قربانا لحبيبه ، وهو ينتظر إليه كأنه شىء مقدس علوى ، فهو يحسد ملابسه لأنها تلتصق دائماً بجسده الجليل المتلى باللذة ، وهو يحسد الأرض التى يختال فوقها لأنها تقبل قدميه دائماً دائماً ... وهو يحسد الهواء الذى يملأ رئتيه لأنه ينفذ إليهما من أنفه الأنفى الجليل ، ثم يخرج من فمه الحلو المطبوع بالقبل ... وهو يحسد الفرفة التى يعيش فيها لأنها فى نظره أثمن من كنوز سليمان لأنها تضم ثروة من الجمال تعدل ثروته أضعافاً مضاعفة

بمضى الأيام غريزة فى ساعدى الفلاح فهما تضربان بالغاس وتشيران الحرث كما يقنى قلم الشاعر بأهازيج الهوى فوق القرطاس .

كانت هذه المواجس تضطرب فى نفس عبدالاله وكان كلما فكر فى سلوك زوجته حزن وساوره الكمد ، لأنها شعبت آلامه ، وخلقت له من المشكلة الواحدة مشكلات ومشكلات ... وقد نسى كل شىء إلا ما افترت عليه من أمر تجوبهما ، فكان يذكر ذلك ويبكى فى أعماقه دون أن يذرف دموعاً واحدة وهو أحر للبكاء وأوجمه

كان يقطن الشاب المراهق توفيق أفندى عبدالاله الطالب بالثانوية الكبرى ، فى منزل صغير قذر من منازل عطفة السلاح بحى النشبية

وكانت غرفته البسيطة الساذجة الرطبة مأوى لأسراب البعوض وجيوش البراغيث والبق ... لكنها بالرغم من هذا اللبلاء كانت جنته التى يقضى فيها ليله وأكثر نهاره فى أيام انقطاعه عن الدراسة وما كان أكثر هذه الأيام

وايس عجيباً أن تكون هذه الباءة المثلثة بأسراب البعوض وجيوش البق جنة للتلميذ المراهق توفيق أفندى عبد الاله ... فالحجرة على قذارتها لها نافذة تشرف من بعيد على حدائق النشبية الناعمة تحت أسوار القلعة ، وذاك منظر عجب بنبت الريش فى خيال شاب مثل توفيق ، ويجعل له أجنحة فيرفرف فى عوالم الشعر ، ويجعل حياته ضرباً من الأحلام لا يقيق منها إلا على لدعة بعوضة أو عضة ذكر من ذكران البق أو باشق من بواشق البراغيث وليس هذا المنظر وحده الذى جعل للفرفة جنة لهذا الشاب ، بل هناك شىء آخر ... شىء إذا وجد قلب كيان المرء وملك زمامه ، وسلبه ليه وتفكيره

فيسمونه حبا ، ثم يرددون له الحدود ويقددون القدود ، ويكحلون عيون الآرام بالسحر ، ويمهدون له القلوب لينام فيها مطمئناً مستريحاً ناعم اللبال

وذهب توفيق إلى القاهرة ليصل حياته المدرسية وأنف أبيه راغم ... ثم ليصل غرامه بالفتاة للناهد العذراء الريانة

لقد كان توفيق يكره التعليم أشد الكره ... وكان ينظر إلى الكتب كأنها سموم معبأة في قوارير إذا ذاقها أذاقته المنيا أشكالا وألوانا ... وكان أكثر الملموم بقصاً إليه دروس الجبر ... لقد كان يسميها دروس الأنغاز والمعميات .. ولم يكن يدرى ما فائدة اللوغرتم مثلاً ... وكيف يستعمله في حل مشكلة دودة القطن أو الندوة العسلية التي تصيب اللوز أو عمل الجبن أو استخراج الزبد من اللبن ... أو ما فائدة الجذر التكعيبي في علاج صدأ القمح

وكان يرى جيوش الشبان المتعلمين تنزول القهوات ودور القه ، والسعيد من حصل منهم على عمل ييضمه جنهات يستر بها حاله ولا تموض شقاه الطويل في دور التعليم ، ولا تنهض بالآمال للكبار التي كان يملقها بمستقبله والداه

لقد كان يرى جيوش المتعلمين المتعلمين يتسكعون هنا ويتسكعون هناك ... وكان يقرأ في الصحف غزواتهم للوزارات وأخبار اجتماعاتهم وهاضمهم بزبد وصياحهم بعمرهم وإملاء إراداتهم على أولياء الأمور حين بطلونهم بخلق الوظائف لهم وتدير الأعمال التي تناسبهم فكان يضيق ذرعاً بمستقبله ويراها أحلك من ظلام القبور

وكان له صدق أسعد حالاً بالتعليم وأقل كراهية للكتب ، وأكثر تفاؤلاً بالمستقبل فجلسا مرة يتجاذبان أطراف الحديث في حديقة المنشية ، وكان

ثم يشد في حسده ويقلو غلوا عجيباً حين يحسد أم حبيبته وأباه وأمه الأدين لأنهم يكلمونه دائماً وهو يكلمهم فيملا آذانهم من سحره ، في حين أنه ما يستطيع أن يكلمه إلا بقدر ، وإلا في كل فرصة منتزعة من غفو المصادفات

هذا هو الحب الجميل الخطر المهلك ... فهو جميل لأنه ينمو في سن جملة ... في زهرة السبا وعمر الأحلام ... عمر الفراغ والخيال المشبوب . الخيال الذي لم تفسده حقيقة الحياة المرة المشوبة بمكر السثولية

وهو خطر بل مهلك لأنه يوقظ الحيوان الذي يشور ويتدفق في أصلاب الناس منذ آدم ... وهذا الحيوان هو أضرى الحيوانات كلها وأشراها لاسيما إذا استيقظ في هذه السن المبكرة ، وهو في الغالب يستيقظ فيها ، فلم يصرفه المؤدبون والآباء في كياسة واطف بمختلف الوسائل التي يرسمها العلماء لمحاربته أو للتساي به ... فهم يحاربونه بالكبت بالدين والنخوف بجهنم أو التهويل بما يلحق الجسم من تهم من جرائه ... وهذه طرائق سلبية قد تضر أحياناً وقد لا تجدى إلا قليلاً ... ثم هم يتسامون به فيصرفونه إلى الرياضة والفنون والدفاع عن الوطن والمخاطرات من كل لون ... وهذه طرائق إيجابية كثيرة الجدوى في تطيف حذته ، ولكنه مع ذلك قد يشور بالوسيلتين فيحطم كل شيء ، كما حطم هذه السنوات الثماني من حياة توفيق ، وكما حطم معها أمل الشيخ عبد الله ، وكما حطم صحة أبنائه بالتجويع والعري ، وكما ذهب بأمله في شراء حصاة أبي طاقية وضماها إلى الدار ، وكما غل يد الرجل فلم يشتر البقرات الثماني التي كان يرجو أن تملأ له منزله سمناً وعسلاً ...

هذا هو الحيوان الفتاك الذي يغازله الشمر

التلاميذ قد أجمعوا على الاضراب ذلك اليوم فلم يذهب
توفيق وصديقه إلى المدرسة

— وزارة ظالمة ووزراء لا يهتمهم إلا أن يرفلوا
في ثياب السعادة للفضاضة ... كلما كان لهم قريب
أو محسوب خلقوا له الوظيفة خلقاً ، فإذا طالبناهم
أن يحلوا أزمنا لووا أعناقهم وقالوا شباب قسنع
مستهترون ...

— وماذا ترى الوزارة صانعة يا توفيق ؟

— ماذا أراها صانعة ؟ ولماذا تقبلنا بمدارسها إذن ؟

— تقبلنا بمدارسها لأننا نطلب ذلك

— لكنها ولىة الأمر فيجب أن تدبر لنا مستقبلا

— وأى مستقبل تراها مدبرة لنا ؟

— لا تلحق بالوظائف إلا الأكفاء المتخرجين

في مدارسها

— هبها فملت ذلك فهل تكفى وظائفها جماهير

المتخرجين ؟

— لا غرو أنها تكفى !

— أنت تقول هذا وقد أثبت الوقائع أن

استيعاب وظائف الحكومة لجيوش المتخرجين عبث

بل ضرب من المستحيل

— إذن فلماذا تقبلنا في مدارسها ؟

— تقبلنا لشدة إلحاحنا في ذلك .. لتهالك آباؤنا

على مدارسها. وإذا أردت الحقيقة فأبؤنا هم المخطئون

— أبؤنا مخطئون ؟

— أجل ، وهم الجناة المسؤولون عن ضياع

مستقبلنا ...

— ماذا تقول يا حليم ؟

— أقول إنهم بلحقوننا بالمدارس وهم لا يدرون

ماذا نصنع حين نتخرج فيها ... وإذا سألتهم أجابوك

هذا الجواب الضعيف التهاافت : دع الأمر لله

فالمستقبل بيديه وهو يعلم للضيق وحده سبحانه !

— وهل المستقبل بيدك أنت ؟

— أنا لا أشك يا صديقي أن مستقبل كل

إنسان بيديه وبدي أييه !!

— هذا كفر ...

— ليس هذا كفراً كما توحي إليك تربيتنا

الفاسدة ... إن مستقبل للناس بأيديهم والمقادير

بيد الله ... إسمع يا صديقي توفيق ... إن إقبال

الآباء بأبنائهم على مدارس التعليم النظري بهذه

الكثرة الهائلة هو نوبة من جنون التقليد ... إنهم

بندفعون مع التيار دون أن يفكروا في هول اللجة

التي تصمقهم حين يقذفون فيها بفلاذات أكبادهم .

إنهم يرون ابن فلان من الناس قد حصل على وظيفة

بعد شق النفس ، ثم ما هو إلا أن بدا بينهم غملاً

في بذلته مياساً تحت طربوشه حتى يحزن جنونهم ،

ويتعنون لأبنائهم مثل مراكزه إن لم يكن أسمى من

وظيفته ... فيسلكون السبيل نفسها التي سلك ...

فترى أبناء التجارين والحدادين والفلاحين والمتالين

وللتقاشين يذهبون إلى المدارس أفواجا ، ثم

يتخرجون فيها أفواجا ، ثم يتكدسون بعد ذلك

في القهاوى ودور اللهو ، ولا يستحيون مع ذاك أن

يرهبوا ذويهم بمصرفاتهم الباهظة حتى يحين الحين

فيجد بعضهم عملاً تافهاً في ركن مصلحة من المصالح

ويسبق الآخرون وهم الأكثر شذواً في الطرق

على أعلى أهلهم .. ما هذا ؟ أليس هذا جنونا يا صديقي ؟

— ... ؟ ...

— أليس كان الأليق بأكثر هؤلاء إن لم يكن

بهم جميعاً أن يسلكوا سبيل آبائهم ؟

— ... ؟ ...

— لماذا لا تتكلم ؟

— إنك بهذا تريد أن تقصر التعليم على أبناء

الأغنياء !

— الحكومة عليها واجب عظيم في ذلك ... ينبغي أن تحمي البلاد من سيل المهاجرين الأجانب الذين يذهبون بثلاثة أرباع الأعمال العامة فتجذب الشبان منافستهم الشديدة ومزاحمتهم غير المشروعة ... إن سبعين في المائة من خدم القهاوى الكبيرة والفنادق الراقية من الأجانب ... إن سبعين في المائة إن لم يكن تسعين ، من وظائف الشركات الكبيرة الأجنبية مقصورة على الأجانب

— إن رأس المال أجنبي يا صديقي فهذا حقهم — كلا ... إنه إن يكن رأس المال أجنبياً فإن الثمرة مصرية بحته ... ولا تنس أن رأس المال الأجنبي يبدأ صغيراً ثم لا يلبث أن يتضاعف في بلادنا ... فلك أن تمدد كالبذور الأجنبية نجيلها من الخارج وتزرعها فتنتج محصولاً مصرية — وما واجب الأغنياء إذن؟ أنتمي أنهم مكلفون بالانفاق على الفقراء ؟ — ما عنيت هذا ، ولا يستطيع أحد أن يكافهم به

— وماذا عنيت إذن ؟ — عنيت أن عليهم واجباً مقدساً إن لم يقوموا به استحقوا الزاوية ... ذلك أنهم يكسبون أموالهم فيما لا يجلب ثروة واسعة في هذا المصر ... إنهم جميعاً لا هم لهم إلا شراء الضياع واقتناء الدور والقصور ... فأموالهم بذلك معطلة وإن جلبت ثلاثة أو أربعة في المائة ربحاً لها كل سنة

— وماذا يصنعون بإرعاك الله ؟ — لو أن اللغني منهم فكر في إنشاء مصنع لصالح الحال ... على أنني أفضل أن تتعد كل جماعة منهم فتكون شركة تفتح ناحية من نواحي النشاط للبكر المعطلة في مصر ... يجب أن تتحرك أموالهم لأن المال وحده هو دم الاقتصاد الذي لا يتفد ، وإن

— كلا ... فما إلى هذا قصدت — وماذا تقصد إذن ؟ — هنا عيب الحكومة ... — ألم أقل لك إنها وزارة مقصرة ! ؟ — ليست هذه الوزارة هي المقصرة بالهات ، إذ هي غلطة جميع الوزارات — وما ذاك إذن ؟

— لو اقتصد الآباء في إرسال أبنائهم إلى المدارس بعد المرحلة الضرورية منه — للتعليم الابتدائي مثلاً ، أو الأولى إذا دعت الضرورة — كان واجب الحكومة أن تنتخب من أبناء الفقراء ، بصرف للنظر عن آباءهم ، الممدد الأكبر من ثأبهم فتعلمهم على نفقتها ، فن استمر منهم على نبوغه استمرت هي على الانفاق عليه حتى يتم منهاجه ويصبح جندياً ممن يعملون في الصف الأول من صفوف الخدمة العامة ، ومن أهل منهم ، أو تكشف عن غير ما كان يرجى منه ، انحرفت به الحكومة عن الطريق ، أو انحرفت في وظيفة صغيرة مما يناسبه من الأعمال الصغيرة العامة ... فبمثل هذه السياسة خصوصاً إذا تولتها أيد حازمة ، كنت لا ترى هذه الجيوش من التملين العاطلين ، ثم كنا وفرنا للمهن الحرة فئة من الشباب الصالح يرتفع بها ، ولا يجملها من الهوان بحيث ينحقرها الأبناء . ومنها بطعمهم الآباء ... إن احتقار المهن الصغيرة قد أخرج محترفيها عن دائرة للشرف ، وهذه هي علة الملل في أخلاقنا — وهل تظن أن هذه المهن من الرواج بحيث تكفل الخير للكثيرين ؟

— إنني أثق أن أيام من هذه المهن تضمن للإنسان حياة هادئة سعيدة خصوصاً إذا تضافرت الحكومة والأغنياء في رفع شأنها — كيف تضافر الحكومة والأغنياء ؟

تكن اليد العاملة والذهن المفكر هما يورت بلازم
هذا الدم ... أقسم لك لو تم هذا لما رأيت متعلماً
عاطلاً في مصر

— هذا صحيح يا حلیم ...

أفاد توفيق من حديث صديقه حلیم فائدة
جليلة ... لقد رأى جانب العبث من حياة التعليم ...
لقد قرأ في ذهنه أن أباه كان على حق حين أراد منعه
من الذهاب إلى المدرسة ليتعلم الفلاحة ، وليندمج
في روح الحق ، وليرث أباه وراثته صحيحة ، وراثته
الملك والفن والمهنة .

غير أن شبیح الفتاة الناهد — لیلی —
تمثل له نخدرة وصرف عنه طائف الحقيقة ، وأغرقة
في بحر الخيال من هواء المبرح ، وخياله المشبوب .

لقد كان الحيوان الخبيث الذي استيقظ بين
كتفيه يمدبه ، وبصور له الفتاة الممتلئة الحسنة
تنقلب بين ذراعيه ، وتلتصق لهما الوردى الساخن
بلحمه المتأجج ، وفوقهما الخمرى الفتان فيه المشتمل
يقطف القبل ، وفي عينيها الدماوين عيناها الجامعتين
تسبحان في دنيا من المغان والسحر .

هذا هو حيوان اللذة المدمر ... هذا هو الحيوان
الذي يقضى على نزع الخبز في نفس الانسان ...
هذا هو الشيطان المساط على الروح الانسانية يشوه
جمالها ويصرفها عن نهج الهداية ، ويخرف لها
باللذة الأنيمة فتضل وتحزى .

كان يجلس في نافذة غرفته يفازل ليل ساعات
وساعات حين لا تكون أمها في غرفتها .

وكان كلما لقيها على السلم أرسل نحيباً مخنوقاً
تردها في حياء وفي خفر ، وهي تعلم ما تضرع
جوانحه لها من حب ، وما ينطوي عليه قلبه من هيام
وكان إذا واثته الفرصة فصعدت ليلي تنشر

ملابس الأسرة فوق السطح ، تسال كاللص ثم اختبأ
في ركن حتى تفرغ من عملها فيندفع نحوها في تأدب
وؤولة ، ثم يقف صامتاً وملاء وجهه الشاحب
المرجف عواطف مكبوتة لا يستطيع أن يعبّر عنها
إلا بدمعة أو دمعتين ... فتفهم ليلي ... ويجزيه
بابتسامة رقيقة ... ثم تهبط بسرعة كالغزالة ...
فيتندرج تحت قدميها قلبه وأنفاسه !

وصعدت مرة تلم الملابس فصمم على أن يغير
معهما خطته ، وأن يكون هذه المرة أكثر
إقداماً وجراً

لقد انتظراها حتى نزلت بحملها فوقف يحول
بينها وبين النزول إلى غرفتها .. ثم أخذها في حديث
خافت هكذا :

— ماذا يا توفيق ؟

— أحبك !

— عيب !

— وكيف يكون الحب عيباً ؟

— هذا لا يليق !

— لا بد أن أعرف !

— تعرف ماذا ؟

— إن كنت تحبيني !

— أرجوك دعني !

— لا بد أن تتكلمي !

— هذا مستحيل !

— ماذا هو هذا المستحيل ؟

— أي تحت ... دعني أرجوك !

— إذن نسجل حبنا بقبلة !

— مستحيل ، مستحيل !

وقبل أن تستطيع الافلات ، انقض على فيها
الشهوى الجميل فسرق منه قبلة ناضجة ، ثم
صرقت كالسهم على السلم ، ودخل هو إلى غرفته

حاملة حياها ... فأخذ قلبه يخفق بشدة وفي عنف ...
وخيل له أنها بطيئة مع أنها في زعمه أرشق من
الظبي وأسرع من الظليم ... ثم هبط يمدو وانقض
على حملها فالتقطه من فوق رأسها ... فنظرت إليه
وتضاحكت ... وصعد الاثنان

ودخل توفيق إلى غرفته بكل الملابس !!

— هلى ...

— مستحيل ... مستحيل !

— بل المستحيل أن تصمدى !

— يجب أن أصمد .. إن أبي عائدة الساعة ،

فإذا أقول لها ؟

— لن نجلسي إلا دقائق

— ليكن بعد أن أفرغ من عملي !

— إذن أصمد فأساعدك !

— كثر الله خيرك ... بل استرح أنت

حتى أزل !

— إذن أوصلك إلى السطح !

وتوالت على السلم ... وتوالت من خلفه ليلى .

ثم وضع حمله ، وأهوى على فخما فطبع عليه للقبلة
للثانية ... وكانت قبلة طويلة متبادلة ...

وعادت ليلى بعد دقائق كانت أطول من دهر

فتلقاها توفيق في ذراعيه وأجلسها على مقعد متوسط
ثم راحا يتناجيان

وكان حديثاً طويلاً شهيماً مرصماً بالقبل ،

لم يقطعها منه إلا انفتاح باب الغرفة للسفلى ، فهبطت
ليلى بسرعة

ونسى توفيق كتبه ؛ وفرغ لحيه

وصرت الأيام

وبدا الشحوب على وجه توفيق ، وكان قد

أفرط في استجلاب اللذة المصنوعة ، لأن ليلى كانت

أحرص على عرضها أشد مما حرص إبليس على

والأرض تتمد تحت قدميه ، ونشوة القبلة تسرى
كالخيا في فؤاده ، صررفة بأجنحة اللذة ، متأرجة
كالورد ، علية كالنسيم ، منددة كأنفاس الصباح !
ما أبدع القبلة الأولى من قبل الحب !!

إنها تفصل من حقيقة الحب بين حيائين ...
إنها تظل تدوى في ذكرى العاشق كما يدوى الأمل
والظفر ... إنها تلمع كالبرق في ظلمات يأسه ...
إنها كالنارة في ظلام البحر اللجى

تطرح توفيق فوق سريره يتقلب كالسكران

لقد نسي كل ما قاله حلیم !

إنما الحياة هنا ... في القاهرة ... الحياة الحب
والحب الحياة كما يقول شوقي وكما يغنى عبد الوهاب
ليبق توفيق في غرفته ... لتكن المدرسة حبيبة
إلى فؤاده لأنها تبقى إلى جانب حبيبته ... ما أمراب
البموض وجيوش البق والبراغيث في قبلة واحدة
يطبعها على فم ليلى ؟

لقد مال القبلة الأولى بالعنف ، فإذا يحول بينه
وبين القبلة التالية ؟ لا شيء ! أليس قد شرب
للكأس الأولى ؟

وجلس يرقب صعود ليلى بقلب مضطرب ،
وأعصاب فائرة ... وكان يعرف متى تصمد ، إذا أحس
بحركة الفسل في قاعة حبيبته فيجلس بومه كله يرقب
الصاعدين والنازلين ...

وأطل فرأى أمها تخرج وتترك دنيا غرامه
بدون رقيب أو عزول .. ففرح واستبشر ، وتأكد أنه
سيقع على منية أغلى وأقى ... لا قبلة تترك في القلب
لوعة وأشجاناً

وفكر في أن يخاطر وينزل إلى ليلى ليسعد
بنظرة منها مؤقتة تشفيه أو تكويه ... وكلاهما عنده
سواء ...

لكنه ما كاد يفعل حتى رآها تبرز من غرفتها

ومضت أيام وأيام .
ثم تسلم يوماً ما خطابين عرف أولهما لأنه من
أبيه فأمله قليلاً ؛ وفض الثاني فلم يجد في رقعته
غير هذا السطر :

«وداعاً يا صديقي فقد تزوجت وأنا سعيدة برجلي !»
واضطرب قليلاً ... وحاول أن يقرأ خاتم البريد

فلم يفلح ...
وفض الخطاب الأول فماله أن يقرأ من أبيه أنه
مريض وأنه في خطر ، وأن لا بد من وجوده بجانبه
في ساعاته الأخيرة

وأفاق توفيق من حلمه اللذيذ
وصدمته الحقيقة المرة
فما د ليودع أباه ... وليحمل على عاتقه العبء
الثقيل الذي نعى لو كان حمله قبل اليوم ، ليكون له
أهلاً ...
در بنى غشم

عصيان ربه حينما أمره بالسجود لآدم . لقد رفضت
أن تسقط إلى الحضيض الذي أغراها توفيق بالتردى
فيه .. لكن الحيوان الدميم كان يعصف به ، ويرغمه
على إشباعه ، فكان المسكين يستسلم له بمد نزول ليلي
فببأشر العادة السرية مباشرة فتأله تستنزف ماء حياته
فلا تكاد تبقى منه شيئاً

وعاد يوماً من المدرسة فوجد غرفة ليلي خاوية
ماذا ؟

لقد ذهبت إلى حيث لا يدري !
وبات ليلة طويلة مؤرقة ... ونزل نصف الليل
يجوب الطرقات كالجنون . ثم عاد مع الفجر فصعد
إلى غرفته ، وعاد إلى غرفة ليلي بمصباحه وجانب
من فراشه ، وابتنى يلقى كالمحموم حتى تنفس الصباح .
وابس ملابسه ، وهرب في الشوارع يبحث
وبشغف ، ولكن بلا جدوى .

بنك مصر

أكبر مؤسسة مالية مصرية

تنشئ الصناعات الكبرى

وتؤسس الاستقلال الاقتصادي

— — — — —

تكتبوا ... النصر لبلدكم

عالمهم ... رعاكم أشرفاً